أدعية الإمام الهادي عليه السلام

- دراسة تحليلية -

الدكتورة فاطمة عبد الأمير السلامي

أستاذ مساعد، قسم الدراسات القرآنية واللغوية، كلية العلوم الإسلامية، الجامعة الإسلامية - النجف الأشرف

fatimaalsalami12345@gmail.com

Supplications of Imam al-Hadi (peace be upon him)

- an analytical study -

Dr. Fatima Abdul Amir Al-Salami

Assistant Professor , Department of Qur'anic and Linguistic Studies , College of Islamic Sciences , Islamic University - Najaf Al-Ashraf

الملخص:ـ

يعد الدعاء أحد الطرق المهمة التي نسلكها للوصول إلى الله تعالى، ولا يكون ذلك ولا تتحقق غاية الدعاء ومضامينه ما لم نشعر بلذة الدعاء، ولا يكون ذلك إلاّ بفهم معانيه ومقاصده، وبما أن أغلب الأدعية التي وصلت إلينا هي أدعية أهل البيت عليهم السلام فلذلك ينبغي لنا أن نفهم لِمَ استعمل الإمام عليه السلام هذا الأسلوب اللغوي في دعائه بدلاً من أسلوب آخر؟ ولِمَ استعمل هذا اللفظ دون ذاك؟ ولِمَ ابتدأ بهذه الكلمات ومن ثم انتقل إلى هذا الموضوع؟ ولِمَ أخّر الحديث في موضوع معين إلى نهاية الدعاء ليختتمه به؟ ولِمَ كرر هنا وقدّم هناك وأخّر في مكان آخر... الخ، وهناك تساؤلات كثيرة لو توقفنا عند بعضها وأنعمنا فيها النظر وتأملنا فيها وحللناها تحليلاً لغوياً لتعجبنا مما تحمله من دلالات ومعان قصدها الإمام عليه السلام وكثير منها موجه منه عليه السلام إلينا نحن المتلقين عبر العصور.

لذا سنعمل في هذه الدراسة على تقديم شرح وتحليل لغوي لبعض الأدعية المهمة في (الصحيفة النقوية) للإمام الهادي عليه السلام، وذلك بالاعتماد على منهج التحليل اللغوي بمعاييره المعروفة والتي خبرها المختصون ووضعوا لها أسساً وقواعد وأدوات تساعد الباحث في الكشف عن أهم النكات الأسلوبية واللغوية الواردة في النص، أي لن تكون هذه الدراسة معتمدة على الشرع وبيان مضامين عقائدياً وموضوعياً كما ورد في عدد من الشروح والدراسات الأخرى بل ستكون دراسة لغوية تحليلية.

الكلمات المفتاحية: الإمام الهادي عليه السلام، الأدعية، النصوص الإمامية، الدراسات النصية، المنهج المفسر، المنهج الناقد، المنهج الاستنباطي.

Abstract:-

Supplication is a crucial method for reaching Almighty Allah, but its success depends on our pleasure and understanding of its meanings and purposes. The Imam's prayers, which frequently originate from Ahl al-Bayt, (peace be upon them), are frequently distinct in language. The Imam emphasizes the need of comprehending his linguistic style and timing by using particular phrases, delaying the discussion of certain themes, and repeating them several times. Many of the questions are directed towards us, the recipients throughout the ages, by the Imam (peace be upon him), and if we stop at some of them, look at them closely, consider them, and analyze them linguistically, we will be amazed at the connotations and meanings that he intended. This study uses linguistic analysis to analyze Imam Al-Hadi's supplications in Al-Sahifa Al-Naqawiyya, focusing on stylistic and linguistic nuances rather than Sharia-based explanations. It will be an analytical language study, not doctrinal or objective.

Key words: Imam al-Hadi (peace be upon him) , supplications, Imami texts, textual studies, the interpretive approach, the critical approach, and the deductive approach.

المقدمة:

من جميل نعمه تعالى التي أنعم بها عليّ ظاهرة وباطنة أنه وفقني للتخصص في مجال الدراسات القرآنية واللغوية، وهي نعمة عظيمة كنت ولا زلت أشكره تعالى عليها في كل وقت وفي كل حين، وأدعوه دوماً أن يوفقني لخدمة القرآن الكريم ونصوص أهل البيت عليهم السلام من خلال تقديم دراسات تعنى بتحليل هذه النصوص تحليلاً لغوياً على وفق المناهج اللغوية اللسانية التي لا تكتفي بتقديم شرح للنص بل تكشف عن الإشارات والدلالات التي قدمتها هذه النصوص إلى المتلقي على مر العصور وبمختلف الثقافات والسياقات التي عاش فيها وأثرت فيه واكتسب مرجعياته الفكرية منها.

فالنصوص كما نعلم أنواعاً متعددة منها ما يتوفر فيها جميع المعايير النصية من قصدية وإعلامية وإبلاغ وسبك و... الخ.

فتكون غنية بالرسائل المهمة التي قصد مؤلفها إبلاغها إلى المتلقي ولو بعد حين من زمن صدورها، ومنها ما دون ذلك.

ونحن اليوم أمام نصوص دينية بشرية، صدرت من أشخاص وصلوا إلى مرتبة عالية من يقين الإيمان وصدق العقيدة، وتكاملوا إلى أن وصلوا إلى درجة الإمامة، فاتبعناهم واتخذناهم أئمة لنا نسلك طريقهم ونهتدي بهداهم بغية التخلص من براثن الشيطان وهوى النفس ومزالق الحياة الدنيا فنحصد بذلك رضا الله تعالى ورضاهم عليهم السلام.

ومن الملاحظ على النصوص الإمامية التي صدرت منهم عليهم السلام، ووصلتنا بطرق متواترة صحيحة السند والمتن أنها جاءت بأساليب لغوية متنوعة فمع أن كلامهم عليهم السلام بعضه من بعض، وجميع كلماتهم تصدر من سراج واحد، وهي امتداد لكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وللقرآن الكريم، إلاّ أننا نجد بأن هذه النصوص المباركة فيها جنبة من الخصوصية يمتاز فيها كل إمام منهم عليهم السلام، بحسب الشخص الذي يوجه إليه الحديث أو الوصية أو الخطبة وبحسب المكان والزمان وكذلك أسلوب الدعاء نجد فيه نكات بلاغية عظيمة يبدو أن أئمتنا عليهم السلام أرادوا توجيهنا نحو الانتباه إليها والالتفات والتركيز عليها لكي نتأدب في دعائنا لله تعالى ولكي نتعلم منهم الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة فهم عليهم السلام في كثير من مواضع نصوص

أدعيتهم يعرضون لنا حال العبد الفقير إلى الله تعالى، المتحير في دنياه، الذي يبحث عن الحق، الذي يرغب في الرجوع إلى الله تعالى، الذي غرته الدنيا واستسلم لهوى نفسه فضاع في غياهب الظلمات الشهوية المادية وما زال يراوح في مكانه، إلاّ أن هداية الله سبحانه وتعالى له كانت ولا زالت فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وطريق الرجوع إلى الله تعالى مفتوح لمن يتوجه إليه تعالى ويطلب منه بكل صدق وإخلاص هدايته إلى السراط المستقيم، وخير تلك السبل هو طريق الدعاء.

فهذه الأدعية إذن هي إحدى الطرق المهمة التي نسلكها للوصول إلى الله تعالى، ولا يكون ذلك ولا تتحقق غاية الدعاء ومضامينه ما لم نشعر بلذة الدعاء، ولا يكون ذلك إلاّ بفهم معانيه ومقاصده ولِمَ استعمل الإمام عليه السلام في هذا الدعاء بهذا الأسلوب اللغوي دون ذاك؟!! ولِمَ استعمل هذا اللفظ دون ذاك؟!! ولِمَ ابتدأ بهذه الكلمات ومن ثم انتقل إلى هذا الموضوع ولِمَ أخّر الحديث في موضوع معين إلى نهاية الدعاء ليختتمه به؟! ولِمَ كرر هنا وأوجز هناك وأخّر هنا وقدّم هناك... الخ من التساؤلات الكثيرة التي لو توقفنا عند بعضها وأنعمنا فيها النظر وتأملنا فيها وحللناها تحليلاً لغوياً لتعجبنا مما تحمله من دلالات ومعانٍ قصدها الإمام عليه السلام وكثير منها موجه منه إلينا نحن المتلقين عبر العصور.

ومن هنا جاءت فكرة هذه الدراسة.

إذ ارتأيت اكمال المسيرة في الدراسات النصية التي ابتدأتها بدراسات قرآنية ثم لغوية بشكل عام - وأخصص دراسة أقدم فيها شرحاً وتحليلاً لغوياً لبعض الادعية المهمة في الصحيفة النقوية للإمام الهادي عليه السلام.

وسأعمل في هذه الدراسة على الاعتماد على منهج التحليل اللغوي بمعاييره المعروفة والتي خبرها المختصون ووضعوا لها أسساً وقواعد وأدوات تساعد الباحث في الكشف عن أهم النكات الأسلوبية واللغوية الواردة في النص، أيّ لن تكون هذه الدراسة معتمدة على الشرح وبيان مضامين الدعاء عقائدياً وموضوعياً كما ورد في عدد من الشروح والدراسات الأخرى بل ستكون دراسة لغوية تحليلية.

وبما أن هذه الدراسة مختصة بأدعية الإمام الهادي عليه السلام سيكون الاعتماد على نصوص

الأدعية على ما جمعه الأستاذ الفاضل جواد القيومي الأصفهاني في موسوعته الخاصة بالأدعية والتي تتضمن أدعية المعصومين عليهم السلام وقد فصل أدعية كل معصوم على حدة واطلق عليها اسم (الصحيفة) على غرار (الصحيفة السجادية) فجمع (الصحيفة العلوية) و(الفاطمية)... إلى أن يصل إلى (الصحيفة المهدية)، متتبعاً في جمعه أسانيد الأدعية وصحة صدورها من المعصومين عليهم السلام.

وقد بحثت مطولاً عن دراسات لغوية تحليلية تعنى بأدعية الإمام الهادي عليه السلام فلم أعثر على دراسة كافية وافية بل أغلب الدراسات المنشورة هي عن الجانب العقائدي أو الموضوعي أو إشارات عن المعاني اللغوية لبعض مفردات أدعية الإمام عليه السلام كما هو الأمر عند القيومي وغيره[1]، لذلك سأعمل في هذه الدراسة على التحليل الشخصي معتمدة في ذلك على قواعد التحليل اللغوي للنصوص، فإن لاحظ القارئ قلة المصادر المعتمدة في هذه الدراسة فالأمر يعود إلى ندرة الدراسات اللغوية التحليلية لنصوص أدعية الإمام الهادي عليه السلام بل تعد هذه الدراسة بكراً بين الدراسات.

وفي الختام أسأل الله تعالى التوفيق لبيان بعض مقاصد التراكيب اللغوية التي اعتمدها سيدنا ومولانا الإمام الهادي عليه السلام في أدعيته بغية كشف هذه الدلالات والمضامين الثمينة إلى المتلقين والحمد لله أولاً وآخراً.

مفهوم الدراسة التحليلية:

في البدء ينبغي لنا توضيح ما نقصده من الدراسة التحليلية هنا وسنقف عند تحديد مفهوم المنهج التحليلي أولاً؛ ذلك بأنه لا يخفى على الدارسين بأن هناك مناهج عدة في دراسة العلوم الإنسانية والعلمية، ومن هذه المناهج ما يمكن استعماله في الجانبين (العلمي والإنساني) مثل المنهج التحليلي، فهو منهج معتمد في الكثير من الدراسات العلمية والإنسانية ذلك بأنه معنى ((بتفسير الظواهر وتحليل البيانات المتاحة عنها، والوصول إلى استنتاجات ذات معنى، ويتم هذا عن طريق العمليات أو الخطوات الخاصة به))[2]، أيّ هو منهج يعتمد على تفكيك الظاهرة المدروسة وإرجاعها إلى أولياتها التي نشأت منها بغية الكشف عن مقاصدها والوصول إلى فهم دقيق وتحقيق نتائج قيمة، وهذا المفهوم لا يبتعد كثيراً في المعنى اللغوي لمفردة (حلّل) إذ استعملت هذه المفردة في اللغة العربية للدلالة على

نقض العقدة وحلّها، فيقال: حَلَّ العُقْدة يَحلُّها حَلاً فتحها ونقضها فانحلّت[٣].

مميزات المنهج التحليلي[٤]:

١. **منهج ناقد:** وتتضح تلك الميزة جيداً في الدراسات الأدبية فهو قادر من خلال أدواته المتخصصة أن يبرز نقاط القوة ويوضح نقاط الضعف في الدراسة.

٢. **منهج مفسر:** فهو يوضح كافة المصطلحات والتعبيرات المستخدمة في الدراسة ويفسر الخطوات الأكثر أهمية والأحداث الغامضة.

٣. **منهج استنباطي:** يتميز المنهج التحليلي بقدرته على التوصل إلى النظريات المهمة من خلال بحث الدراسات على نحو جيد واستخلاص النتائج منها.

ولما لهذا المنهج من مميزات مهمة جداً نجد الدارسين قد اعتمدوه في البحوث العلمية والتجريبية والإنسانية، أما المختصون باللغة فقد اعتمدوا على هذا المنهج لتحليل اللغة إلى مستويات عدة فضلاً عن اعتمادهم على مناهج أخرى؛ ذلك بأن اللغة تحتوي ((على جوانب شديدة التعقيد تتطلب أكثر من منهج وأكثر من وسيلة لفك شفراتها وتحليل محتوياتها، وكشف مقاصدها، ولا يتسنى لمنهج واحد أن يصف خصائص اللغة وصفاتها أو يفسر ظواهرها تفسيراً واضحاً يصيب بعدها، ومن ثم قسّم العلماء اللغة إلى عدة مستويات تحليلية ليتمكنوا من كشف محتوياتها وإظهار أسرارها ومعرفة مضمونها))[٥].

وبما أن الدارسين اللغويين قد تنوعت اتجاهاتهم ورؤيتهم التحليلية للغة بسبب اختلاف مرجعياتهم الفكرية فإننا نلحظ تنوعاً في مناهج التحليل اللغوي وكذلك في مستويات التحليل، ((فالباحث يختار المنهج الذي يراه ملائماً لتحقيق أهدافه من تحليل اللغة، وتقسيم اللغة على مستويات يخضع أساساً لمؤلف الباحث من اللغة والمنهج الذي يصطفيه لنفسه من بين مناهج التحليل ويؤثر في ذلك أهمية مستوى من مستويات التحليل يراد الباحث يستأهل اهتمامه لما به من عناصر غنية بالبحث))[٦].

ومع أن التقسيم الذي وضعه (ماريوباي)[٧] لمستويات التحليل اللغوي هو التقسيم الأشهر والأكثر شيوعاً، وهو المستويات الأربعة المعروفة المعتمدة عند كثير من الدارسين وهي: (مستوى الأصوات، مستوى الصرف، مستوى النحو، مستوى المفردات)، إلاّ أننا لا

نقصد من الدراسة التحليلية لأدعية الإمام الهادي عليه السلام الاعتماد على هذه المستويات الأربعة، ولا تقسيم الدراسة على هذه المستويات بل سنقف عند التراكيب اللغوية المستعملة في هذه الأدعية ونعمل على تحليلها والكشف عن دلالاتها ومقاصدها ولِمَ تم استعمالها هنا دون غيرها وماذا أضفت على النص الدعائي، وماذا أراد الإمام عليه السلام أن يبلغ المتلقي بوساطتها، أيّ أننا سنقف عند المستوى التركيبي (النحوي) بشكل أساس ومن ثم سنشير إلى دلالات المستويات الأخرى من مفردات وصرف وصوت بحسب الحاجة إلى ذلك.

أيّ ستكون هذه الدراسة قائمة على ذكر جزء من النص أولاً ومن ثم يأتي تحته التحليل ابتداءً من تحليل التراكيب اللغوية فيه وانتهاء بتوضيح بعض المفردات الغامضة بشكل متكامل وفي المكان ذاته بعيداً عن التقسيم إلى مستويات كما في الدراسات اللغوية الأخرى؛ ذلك بأن التحليل المتكامل للنص بعيداً عن تقسيمه إلى مستويات يعطي نظرة متكاملة عن النص تؤدي بالمتلقي إلى فهم متكامل بعيد عن الفهم الجزئي الذي يحصل عند تقسيم الدراسة إلى مستويات عدة.

وبما أننا ذكرنا سابقاً بأن نظرة الباحث ومرجعيته الفكرية تؤثر في اختياره لنوع التحليل ولأي مستوى من المستويات وأيها يكون أكثر أهمية من غيره، وبحسب الدراسات السابقة التي قدمتها عن القرآن الكريم ونصوص أهل البيت عليهم السلام أجد بأن المستوى التركيبي هو الأجدر بالعناية وبالوقوف عنده أكثر من غيره ذلك بأن هناك (تراكيب لغوية مقصودة) في الاستعمال أثرت كثيراً في مضامين هذه الأدعية بل وتم تكرارها أكثر من مرة وفي أكثر من موضع، وأثناء تحليلنا لهذه التراكيب اللغوية المقصودة سنقف عند صيغة المفردات المستعملة ومعانيها وبعض الأمور التي تتعلق بالمفردة.

دعاؤه عليه السلام في التوحيد لله تعالى:

((إلَهي تَاهَتْ أَوْهَامُ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَقَصُرَتْ طَرْفُ الطَّارِفِينَ، وَتَلاشَتْ أَوْصَافُ الْوَاصِفِينَ، وَاضْمَحَلَّتْ أَقاوِيلُ الْمُبْطِلِينَ عَنِ الدَّرْكِ لِعَجِيبِ شَأْنِكَ أَوِ الْوُقُوعِ إِلى عُلُوكَ، فَأَنْتَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لا تَتَناهى، وَلا يَقَعُ عَلَيْكَ عُيُونُ بِإِشَارَةٍ وَلَا عِبَارَةٍ، هَيْهَاتَ ثُمَّ هَيْهَاتَ، يَا أَوَّلِيُّ، يَا وَحْدَانِيُّ، يَا فَرْدَانِيُّ، شَمَخْتَ فِي الْعُلُوِّ بِعِزِّ الْكِبْرِ، وَارْتَفَعْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَوْرَةٍ وَنِهَايَةٍ بِجَبَرُوتِ الْفَخْرِ)).

يبدأ الدعاء بلفظ (إلهي) وهو نداء محذوف حرف النداء، وقد حُذفت أداة النداء هنا للتنبيه على شدّة التقرب لله تعالى وبيان قرب المساحة بين العبد والله سبحانه وتعالى إذ تحذف أداة النداء لجملة أسباب وأغراض بلاغية في الكلام للدلالة على التنبيه على قضية معينة من بينها استحضار الحال كما في قول الشاعر دعبل الخزاعي[٨]:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فراتِ

وبيان القرب والعناية الإلهية واللطف الإلهي مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[٩] فالإمام عليه السلام هنا يتحدث عن موضوع التوحيد فهو يتوجه لله تعالى بأول لفظ من ألفاظه ويؤكد على اعترافه بوحدانيته تعالى وإيمانه الكامل ويقينه الثابت من ذلك فيقول مباشرة (إلهي) بإضافة ياء المتكلم إلى اللفظ وهنا فرق بين القول (يا الله) وبين القول (إلهي) ففي هذا اللفظ خصوصية أكثر، أيّ أني أتوجه إليك وأخصك بالدعاء يا إلهي عزّ شأنك.

ومن ثم يبدأ الإمام عليه السلام ببيان عظمة الذات الإلهية بحيث لم ولن يعلم كنهه تعالى جنس مخلوق ويذكر الأدلة على ذلك.

ثم يبدأ بتعداد الأمور التي عجز العباد في الوصول إليها وفهمها وذكر ذلك بصيغة الجمل الفعلية الخبرية وذلك للدلالة على استمرار ذلك الفعل، إذ تدل الجملة الفعلية على استمرارية الحدث ودوامه بعكس الجملة لاسمية التي تدل على ثبوت الحدث وعدم تغيره[١٠].

فيقول عليه السلام **((تَاهَتْ أَوْهَامُ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَقَصُرَتْ طَرْفُ الطَّارِفِينَ، وَتَلاشَتْ أَوْصَافُ الْوَاصِفِينَ، وَاضْمَحَلَّتْ أَقَاوِيلُ الْمُبْطِلِينَ عَنِ الدَّرْكِ لِعَجِيبِ شَأْنِكَ أَوِ الْوُقُوعِ إِلَى عُلُوكَ))**[١١].

فأول الأمر يستعمل الإمام الفعل (تاه) وهو فعل يستعمل في اللغة العربية للدلالة على التحير والضلالة ويأتي أيضاً بمعنى الشخص الصلب المتكبر[١٢]، والأوهام من توهم الشيء: أيّ تخيله وتمثله، كان في الوجود أم لم يكن[١٣]، فبيّن الإمام عليه السلام هنا بأنه كلما حاول أحد أن يتخيل أو يتمثل في ذهنه إدراك الذات الإلهية بشتى الطرق وبكافة المسميات وبمختلف

العلوم عاجز عن الفهم متحير في ذلك وضال به ويبقى مستمر في تلك الحيرة وتلك الضلالة فهو في حالة تيه مستمر.

ونلحظ هنا بلاغة التعبير إذ استعمل عليه السلام الفعل (تاه) مع (أوهام المتوهمين) فكل متوهم يتيه في توهمه ولم يقل (تاهت العقول) مثلاً؛ لأن الإنسان العاقل يقر بوحدانية الله تعالى ويدرك ذلك بنعمة العقل التي رزقه الله تعالى بها أما من يقع في حيرة وضلالة فهو المتوهم الذي لا يحكم عقله في إدراك الأمور وفهمها.

ومن ثم يقول (قصرت طرف الطارفين) وهو بهذا ناسب بين الفعل (قصرت) وبين قول (طرف الطارفين) واستعملها مثل الاستعمال القرآني ﴿**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾[١٤] ولكن الاستعمال القرآني جاء في معنى المدح والمقصود بذا ((نساء في نظرهن مثل القصور والغض خلقة فيهن... والقصور: مثل الغض من صفات عيون المها والظباء))[١٥] وإشعار المدح هنا لأنهن يقصرن عيونهن على أزواجهن لعفتهن.

أما استعمال الإمام عليه السلام هنا ففيه دلالة على الضعف وعدم القدرة على الوصول إلى كنه معرفة الذات الإلهية مهما حاول الطارفون ذلك، مهما حاولوا تحريك الجفون في النظر، فالطرف في اللغة يعني ذلك، و (الطرف) اسم جامع للبصر، لا يثنى ولا يجمع لأنه في الأصل مصدر فيكون واحداً ويكون جماعة[١٦]، وقال تعالى ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[١٧].

ومن ثم يقول عليه السلام ((تلاشت أوصاف الواصفين)) أيّ زالت ولم يبق منها شيء وصارت هذه الأوصاف إلى العدم، أيّ مهما اجتهد الواصفون في وصف الله عزّ شأنه لم يصلوا إلى شيء وصارت جميع أوصافهم إلى العدم لأنه تعالى لا تدركه أوصاف الواصفين.

ومن ثم يقول عليه السلام: (اضمحلت) أيّ ضعفت وفنيت وزالت (أقاويل) وهنا نكتة بلاغية مهمة إذ استعمل الإمام عليه السلام اضمحلت مع أقاويل ولم يقل (أقوال)؛ وذلك لأن كلمة (أقاويل) تستعمل للدلالة على الادعاء والاختلاق والافتراء في القول كما ورد في الاستعمال القرآني ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[١٨].

وفي جميع الجمل السابقة نلحظ تأطير الإمام عليه السلام على استعمال صيغة اسم الفاعل[١٩] في (المتوهمين، الطارفين، الواصفين، المبطلين) للدلالة على ثبات هذه الصفات في جميع من

ذكرهم الأمر الذي ناسب أن ينسب إليهم تلك الأفعال التي حصلت نتيجة ثبوت هذه الصفات فيهم.

ثم بين أن جميع هؤلاء عجزوا عن (إدراك) بصيغة المصدر دون استعمال صيغة الفعل (أدرك) لبيان ثبات عدم القدرة على الإدراك الحقيقي للذات الإلهية وعجز جميع الخلق عن ذلك وما ذلك إلاّ لعجيب شأنه تعالى وعظيم علوه عن جميع ذلك.

ثم يعلل عليه السلام جميع ذلك ويبين علّة عدم القدرة على الإدراك بقوله: (فأنت في المكان الذي لا يتناهى ولا يقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة) ولهذا قصرت طرف الطارفين وبطلت أقاويل المبطلين.

(هيهات ثم هيهات) وهيهات: اسم فعل ماضٍ بمعنى بعد، وتكرار اللفظ هنا للتأييد والتنبيه على بعد جميع من ذكر عن الإدراك الحقيقي لأنهم قاصرون عن ذلك فهو تعالى جلّ شأنه (أولي، وحواني، فرداني) ليس كمثله شيء.

دعاؤه عليه السلام في حال القنوت:

((يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالرُّبُوبِيَّة، وَ تَوَهَّدَ بِالْوَحْدَانِيَّة، يَا مَنْ أَضَاءَ بِاسْمِه النَّهَارُ، وَأَشْرَقَتْ بِه الْأَنْوَارُ، وَ أَظْلَمَ بِأَمْرِه حِنْدِسُ اللَّيْلِ، وَ هَطَلَ بِغَيْثِه وَابِلُ السَّيْلِ، يَا مَنْ دَعَاهُ الْمُضْطَرُّونَ فَأَجَابَهُمْ، وَ لَجَأَ إِلَيْه الْخَائِفُونَ فَامَنَهُمْ، وَ عَبَدَهُ الطَّائِعُونَ فَشَكَرَهُمْ، وَحَمِدَهُ الشَّاكِرُونَ فَأَثَابَهُمْ، مَا أَجَلَّ شَأْنَكَ، وَأَعْلَى سُلْطَانَكَ، وَأَنْفَذَ أَحْكَامَكَ))[٢٠].

يبدأ عليه السلام بهذا الدعاء بقوله (يا من) وهو أسلوب كثر في الأدعية أيّ استعمال (ياء) النداء مع (من) والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء والمسألة.

وهناك فرق بين الابتداء بالدعاء بصيغة (إلهي) (يا رب) (ربنا) (اللهم) وبين (يا من) ذلك بأن لكل أسلوب غرض معين وفائدة مقصودة عند استعماله، ففي أغلب المواضع التي نلحظ فيها حذف حرف النداء والتوجه إلى الله تعالى مباشرة بالمسألة مثل (اللهم) (إلهي) (ربنا)... الخ تكون في أوقات ومواقف دعاء تبين قرب المسافة بين العبد والله تعالى ذلك بأن حذف حرف النداء يشعر بقرب المنادى من ربه بخلاف نداء رب العالمين لعباده فإنه غالباً ما يأتي بحرف النداء (يا) المشيرة إلى أنه تعالى موصوف بالتعالي والاستعلاء على خلقه

ومن الملاحظ بأن ((نداء الله للعباد لم يأتِ في القرآن في الغالب إلاّ بـ (يا) المشيرة إلى بعد المنادى لأن صاحب النداء منزه عن مداناة العباد، موصوف بالتعالي عنهم والاستغناء فإذا قرر نداء العباد أتى بأمور تستدعي قرب الإجابة منها: إسقاط حرف النداء المشير إلى قرب المنادى وأنه حاضرة مع المنادي غير غافل عنه فدل على استشعار الراغب هذا المعنى، إذ لم يأتِ في الغالب إلاّ (ربنا) كقوله ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾، ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾))[٢١].

ولا يعني بأن ذكر حرف النداء (يا) هنا يقلل من المسافة بين العبد وربه لا بل في عدم ذكره تنبيه على غرض الدعاء وما يقصده العبد من توجهه وطلبه لله تعالى، وشدة حاجته إليه فيذكره مباشرة من دون (يا).

أما هذا الأسلوب هنا (يا) مع (من) الدالة على الذات الإلهية المقدسة ففي استعمال هذا الأسلوب بيان لعظمة الله تعالى وعلو شأنه واستعلائه وصِغَر مقام العبد في مقابل هذه العظمة التي ليس كمثلها شيء، ومن هنا نلحظ بأنه كلما تم استعمال هذا الأسلوب في الدعاء (يا من) ففيه بيان لعظمة الله تعالى وعلو شأنه واستعلائه.

وخصوصاً في حال القنوت ففي القنوت حالة من توجه العبد إلى ربه يكون فيها مبيناً لأقصى درجات العبودية والخضوع والتواضع والتصاغر والتذلل لله تعالى، في مقابل عظمة الله تعالى ومما يوضح هذه العظمة المقدسة التعبير بـ (من) دون لفظ الجلالة (الله) أو (ربنا) أو (اللهم) أو (إلهي) إذ في كل موطن فيه بيان القرب بين الرب والمربوب تستعمل هذه الصيغ أما في بيان العظمة والاستعلاء نلحظ استعمال (يا من) ويأتي بعدها ذكر صفات الله تعالى بصيغة الجملة الفعلية المبدوءة بالفعل الماضي للدلالة على ثبات الصفة وأزليتها (تفرد بالربوبية) (توجد بالوحدانية) (أضاء باسمه النهار)، (أشرقت به الأنوار)، أظلم بأمره هندس الليل) (مطل بغيثه وابل السيل).

وفي اختيار صيغة المصدر الصناعي (الربوبية) هنا تأكيد على بيان صفة (الربوبية) وتفرده تعالى بها ذلك بأن المصدر الصناعي يدل على صفة في اللفظ الذي صنع منه أو على ما فيه من خصائص بخلاف المصدر الأصلي الذي يدل على الحدث مجرداً من الزمان[٢٢].

فالإمام عليه السلام هنا يقصد بيان تفرده تعالى بصفة الربوبية فاستعمل صيغة المصدر الصناعي دون صيغة الاسم أو المصدر من لفظ (رب).

وكذلك الأمر في اختيار لفظ (الوحدانية) فهو مصدر صناعي من الوحدة بزيادة الألف والنون للمبالغة في الصفة[٢٣] واصطلاحاً هي: صفة من صفات الله تعالى معناها: أن يمتنع أن يشاركه شيء في ماهية وصفات كماله وأنه منفرد بالإيجاد والتدبير العام بلا واسطة ولا معالجة ولا مؤثر سواه في أثرها عموماً وباختصار الوحدانية ترادف التوحيد الذي يعني نفي الشريك وبطلان تعدد الآلهة[٢٤].

وقد قدم الإمام عليه السلام (الربوبية) على (الوحدانية) لأنه في صفة الربوبية بيان لعلاقة الله تعالى بعباده ورعايته ولطفه بهم ورحمته الواسعة، إذ ابتدأ الدعاء بتوجهه لله تعالى بهذه الصفة (يامن تفرد بالربوبية) أيّ أخصك أنت يا إلهي يا واحد يا فرد يا رب يا من له وحده هذه الصفة فأنت خالق الخلق وربهم وراعيهم وراحمهم فإليك وحدك أتوجه وابتهل واخلص في دعائي برجاء قضاء حوائجي، أتوجه بهذه الألفاظ التي تبين مدى ضعفي وفاقتي وصغري أمام عظمتك وقوتك وقدرتك.

ومن ثم بعد بيان صفتي الربوبية والوحدانية يأتي ذكر مجموعة من الأمور التي تمت بقدرته تعالى (يا من أضاء باسمه النهار وأشرقت به الأنوار وأظلم بأمره حندس الليل).

استعمل أسلوب الطباق إذ جمع الإمام عليه السلام بين (أضاء) و (أشرق) و(أظلم) إذ بعظمته تعالى أضاء النهار وأشرقت به الأنوار وبذات هذه العظمة والقدرة التي تفرد بها سبحانه وتعالى (أظلم بأمره حندس الليل) و (الحندس): الليل شديد الظلمة والسواد[٢٥].

وبما أن الله سبحانه وتعالى نور النور وليس كمثله نور ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾[٢٦].

نلحظ إسناد الإمام عليه السلام فعلي الإضاءة والإشراق لاسمه سبحانه وتعالى بينما تم إسناد فعل الظلمة (أظلم) إلى أمره تعالى وهناك فرق كبير بين التعبيرين.

(هطل بغيثه وابل السيل):

الهطل المطر الضعيف الدائم وتتابع المطر المتفرق العظيم القطر وقد هطل يهطل، الوابل المطر الشديد الضخم القطر وقوله (وابل السيل) أيّ الوابل الذي يصير سبباً لجريان السيل أو الوابل الذي ينزل كالسيل أو نسبة هطول وابل إلى السيل على التوسع[٢٧].

وهنا تعبير مجازي يعبر به الإمام عليه السلام عن سعة رحمة الله تعالى بعباده وعنايته بهم.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان حال العباد، واختار للتعبير عنهم صيغة اسم الفاعل إذ يقول عليه السلام: ((يا من دعاه المضطرون فأجابهم، ولجأ إليه الخائفون فآمنهم، وعبده الطائعون فشكرهم، وحمده الشاكرون فأثابهم)) وذلك للدلالة على ثبات هذه الصفات من هؤلاء الأصناف وفي مقابل ذلك عبر عنهم بصيغة الفعل الماضي الدال على ثبات الأمر وتمام انقضائه[٢٨]، وحصوله في الحالتين في حالة توجه كل ما صنف لله دعائه وفي حالة الاستجابة إذ لجأ إليه الخائفون فآمنهم (لجأ) ماضي و (آمنهم) ماضي و (عبده) الطائعون (فشكرهم) كلاهما ماضٍ وحمده الشاكرون فأثابهم كلاهما ماضٍ أيضاً.

أما لفظ (مضطرون) فهو اسم مفعول دون البقية؛ وذلك بأن الاضطرار ليس ثابتاً فيهم بشكل دائم كما هو الحال في الخائفين من الله تعالى والطائعين له والشاكرين له بل هو حدث يقع على الإنسان بأوقات وأشكال معينة فيلجأ إلى الله تعالى ويبتهل إليه ليستجيب له دعاءه.

(ما أجل شأنك) (وأعلى سلطانك) و (أنفذ أحكامك).

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى استعمال أسلوب التعجب هنا إذ بعد جميع ما ذكر سابقاً من الألطاف الإلهية والرحمة الربانية الواسعة التي شملت الخلق جميعهم، عمد إلى استعمال الأسلوب الإنشائي التعجبي لكي يلفت نظر المتلقين وينبههم إلى عظمة الله تعالى وجلالة قدره وعلو سلطانه وأحقية نفاذ أحكامه، فالإمام عليه السلام خير من يعي ذلك ويعلمه فاستعمال أسلوب التعجب فيه إبلاغ لمن يتبع إلى هذا الدعاء أو يقرؤه في قنوته وبهذا يكون أسلوب التعجب قد حقق غرضه الإبلاغي هنا.

((أَنْتَ الْخَالِقُ بِغَيْرِ تَكَلُّف، وَالْقَاضِي بِغَيْرِ تَحَيُّف، حُجَّتُكَ الْبَالِغَةُ، وَكَلِمَتُكَ الدَّامِغَةُ، بِكَ اعْتَصَمْتُ وَ تَعَوَّذْتُ مِنْ نَفَثَاتِ الْعَنَدَةِ وَرَصَدَاتِ الْمُلْحِدَةِ الَّذِينَ الْحَدُوا فِي أَسْمَاءِكَ،

وَرَصَدُوا بِالْمَكَارِهِ لأَوْلِيَاءِكَ، وَأَعَانُوا عَلَى قَتْلِ أَنْبِيَائِكَ وَأَصْفَاءِكَ، وَقَصَدُوا الاطفاء نُورك بإذاعة سكَ وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ وَصَدُّوا عَنْ آيَاتِكَ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ وَدُونِ رَسُولِكَ وَدُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً رَغْبَةً عَنْكَ، وَعَبَدُوا طَوَاغِيتَهُمْ وَجَوَابِيتَهُمْ بَدَلاً مِنْكَ))[٢٩].

ومن ثم ينتقل عليه السلام إلى أسلوب الخبر (أنت الخالق بغير تكلف) (والقاضي بغير تحيف) وبما أن هاتين الصفتين من الثوابت والحقائق الدامغة جاء التعبير عنهما بالأسلوب الخبري لتحقيق فائدة الخبر.

أما في قوله عليه السلام ((وبك اعتصمت)) ففي هذه الفقرة من هذا الدعاء المبارك يبرز أسلوب التقديم والتأخير وذلك بتقديم شبه الجملة (بك) العائدة لله سبحانه وتعالى وذلك لغرض بيان حصر الاعتصام والتعوذ وقصده بالله تعالى لا بسواه فهو وحده القادر على إنقاذ عباده ممن يتعوذ منهم الإمام عليه السلام وينبه كل مؤمن للتعوذ منهم.

(نفث) النفثُ بالنفخ وهو أقل من التفل. وقد (نفث) الراقي من باب ضَرَبَ ونَصَرَ والنفاثات في العقد السواحر... ويقال نفث الراقي في العقدة وفلان ينفث غضباً وفي أذنه ناجاه والشيء من فيه ومن به[٣٠] وفي التنزيل ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[٣١] والحية تنفث السم حين تنكز.

والتعبير هنا مجازي نوعه استعارة إذ استعار الإمام عليه السلام لفظ (نفث) من استعماله الحقيقي للفظ الشيء أو لفظ السم من الحية وعبر به عن (المعاندين) إذ كأنهم في ما يفعلونه ويتقولونه على الله تعالى ويحاولون بذلك تضليل العباد كحال لفظ الأفعى للسم، فلذلك نراه أرواحنا فداه استعمل أسلوب التقديم والتأخير بأسلوب القصر وذلك للتحذير من عظيم ما يتعوذ منه عليه السلام، إذ هؤلاء (المعاندين) الذين وصلوا إلى درجة معاندة الله تعالى لا يشمل العناد أنفسهم فحسب بل نتيجة هذا العناد يسعون إلى تضليل الآخرين ببث الأفكار السيئة واقتراف الأفعال المشينة بل يسوغون للعباد ارتكاب المنكرات بأسلوب ملتوي غير مباشر لذلك عبر عنه الإمام بأنه (نفث) ومثله ما ورد في قوله تعالى ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ...﴾[٣٢].

ومن ثم يتعوذ عليه السلام من (رصدات الملحدة) والرصد: الترقب والتربص ومنه قول

العرب: رصد القِط الفأرة أيّ ترقبها وتربص بها[٣٣]. وفي اختياره عليه السلام لهذا اللفظ هنا قصدية بالغة فالملحد وهو الأسوء من المعاند ذلك بأن الملحد قد وصل بعتوه وتكبره لإنكار وجود الله تعالى وهو بذلك أشد من المعاند وأخطر على العباد وبما أنه وصل إلى درجة إنكار وجوده تعالى فهو يتحين الفرص ويترقب الأحوال والمواقف لكي يكيد بعباد الله تعالى بغية إضعاف عقيدتهم وإبعادهم عن طريق الله تعالى ذلك بأنهم ألحدوا في ذات الله تعالى وأسمائه فرصدوا بالمكاره أولياءه وعباده الصالحين، فهم لا يترقبون أمثالهم بل يترقبون ويتربصون أولياء الله تعالى بغية إفساد عقيدتهم، وهنا يبين الإمام عليه السلام شرور هؤلاء فكيف تكون وكيف يتربصون بالعباد سعياً منهم ومحاولة لهدم الدين وذلك بإفساد خلصائه فهم:

أولاً: رصدوا بالمكاره أولياءك.

ثانياً: أعانوا على قتل أنبيائك وأصفيائك.

فهم أولاً يتربصون بأولياء الله تعالى جميع أنواع المكاره ومن ثم يعملون على الإعانة في قتل رسل الله تعالى إلى خلقه وذلك محاولة منهم للتخلص من الصالحين، ذلك بأن الأنبياء والأصفياء الذين أصطفاهم الله تعالى من عموم خلقه يصعب على الملاحدة التأثير عليهم وعلى عقيدتهم فلهذا يلجؤون إلى خلق الفتن والمكائد للتخلص منهم ومن جميع عباد الله المؤمنين وذلك لتحقيق هدفهم الأساسي الذي ذكره الإمام عليه السلام وهو:

ثالثاً: وقصدوا لإطفاء نورك بإذاعة سرك.

إذاً فالرصد والإعانة على القتل بقصد ماذا؟! بقصد إطفاء نور الله تعالى في الأرض وهو تعبير مجازي هنا نوعه استعارة كما ورد في قوله تعالى: ﴿لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ...﴾[٣٤].

ويكمل الإمام أفعالهم فيقول:

رابعاً: وكذبوا رسلك.

خامساً: وصدوا عن آياتك.

سادساً: واتخذوا من دونك ودون رسولك ودون المؤمنين وليجة.

هنا تضمين لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣٥].

سابعاً: وعبدوا طواغيتهم وجوابيتهم بدلاً عنك تعبير كنائي عن موصوف إذ يشمل التعبير (بالطاغوت) و (الجبت) عن كافة أشكال الشرك بالله تعالى بعبادة الأصنام أو الأشخاص أو الهوى وغيرها.

ثم ينتقل عليه السلام للتعبير عن منن الله تعالى لأوليائه بحفظه لهم من المعاندين والملحدة وذلك بقوله ((**فَمَنَنْتَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ بِعَظِيمِ نَعْمَائِكَ، وَجُدْتَ عَلَيْهِمْ بِكَرِيمِ آلَائِكَ، وَأَتْمَمْتَ لَهُمْ مَا أَوْلَيْتَهُمْ بِحُسْنِ جَزَائِكَ، حِفْظاً لَهُمْ مِنْ مُعَانَدَةِ الرُّسُلِ وَضَلَالِ السُّبُلِ، وَصَدَّقْتَ لَهُمْ بِالْعُهُودِ أَلْسِنَةُ الْإِجَابَةِ، وَخَشَعَتْ لَكَ بِالْعُقُودِ قُلُوبُ الْإِنَابَةِ**))[٣٦].

وذلك بالأسلوب الخبري وباستعمال الفعل الماضي للدلالة على ثبوت وقوع الحدث وحصوله (مننت، وجدت، وأتممت، وصدقت، وخشعت) مع استعمال المجاز في آخر جملتين (ألسنة الإجابة) (خشعت القلوب) إذ الألسنة لا تجيب هي حقيقة والقلوب لا تخشع هي حقيقة وإنما الإنسان الذي يمتثلان جزءاً منه.

وبعد الانتهاء من التعوذ من جميع ما سبق يتوجه عليه السلام إلى الله تعالى ويقول:

((**أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ الَّذِي خَشَعَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَأَحْيَيْتَ بِهِ مَوَاتَ الْأَشْيَاءِ، وَأَمَتَّ بِهِ جَمِيعَ الْأَحْيَاءِ، وَجَمَعْتَ بِهِ كُلَّ مُتَفَرِّقٍ، وَفَرَّقْتَ بِهِ كُلَّ مُجْتَمِعٍ، وَأَتْمَمْتَ بِهِ الْكَلِمَاتِ، وَأَرَيْتَ بِهِ كُبْرَى الْآيَاتِ، وَثَبَّتَ بِهِ عَلَى التَّوَّابِينَ، وَأَخْسَرْتَ بِهِ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، فَجَعَلْتَ عَمَلَهُمْ هَبَاءً مَنْثُوراً، وَتَبَّرْتَهُمْ تَتْبِيراً**))[٣٧].

وهنا الإمام عليه السلام يسأله تعالى باسمه الأعظم، ولم يصرح بذلك بل ذكر جملة من الأمور التي تمت بوساطة وبسبب وذلك باستعمال (الباء السببية + ضمير الشأن) لهذا الاسم العظيم الجليل، ومن عادة الأئمة عليهم السلام أن لا يحصروا هذا الاسم أو يحددوه بل يعبرون عنه في أدعيتهم وزياراتهم بشمولية وعموم وقد وردت روايات عدة بخصوصه.

((**أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَجْعَلَ شِيعَتِي مِنَ الَّذِينَ حُمِّلُوا فَصَدَّقُوا، وَاسْتُنْطِقُوا فَنَطَقُوا، آمِنِينَ مَأْمُونِينَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَهُمْ تَوْفِيقَ أَهْلِ الْهُدَى، وَأَعْمَالَ أَهْلِ الْيَقِينِ، وَمُنَاصَحَةَ أَهْلِ التَّوْبَةِ، وَعَزْمَ أَهْلِ الصَّبْرِ، وَتَقِيَّةَ أَهْلِ الْوَرَعِ، وَكِتْمَانَ الصِّدِّيقِينَ،**

حَتّى يَخَافُوكَ اللّهُمّ مَخَافَةً تَحْجُزُهُمْ عَنْ مَعَاصِيكَ، وَحَتّى يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ لِيَنَالُوا كَرَامَتَكَ، وَ حَتّى يُنَاصِحُوا لَكَ وَ فِيكَ خَوْفاً مِنْكَ، وَحَتّى يُخْلِصُوا لَكَ النّصِيحَةَ فِي التّوْبَةِ حُبّاً لَكَ، فَتُوجِبَ لَهُمْ مَحَبّتَكَ الّتِي أَوْجَبْتَهَا لِلتّوّابِينَ، وَحَتّى يَتَوَكّلُوا عَلَيْكَ فِي أُمُورِهِمْ كُلّهَا حُسْنَ ظَنّ بِكَ، وَحَتّى يُفَوّضُوا إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ثِقَةً بِكَ))(٣٨).

يخصص الإمام عليه السلام هذه الفقرة من دعائه للدعاء لشيعته ويبدأ ذلك بالتوجه إلى الله تعالى بالصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله قبل شروعه في الدعاء لهم وهذا ما دأب عليه أهل البيت عليهم السلام فعادة ما يبدأون بذكر محمد وآل محمد والصلاة عليهم عليهم السلام قبل الشروع بالدعاء في كثير من المواطن لما في الصلاة على محمد وآله من فضل معروف وأهمية بالغة وأثر كبير في استجابة الدعاء فهم الوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى وخير من يتوسل بهم العباد لطلب الشفاعة واستجابة الدعاء عنده تعالى شأنه.

ونلحظ هنا بأنه عليه السلام لم يصلِّ هو على محمد وآل ومحمد، ولم يقل الصيغة المشهورة (اللهم صلِّ على محمد وآل محمد) بل استعمل صيغة (اسألك اللهم باسمك... أن تصلي) فهو عليه السلام يسأل الله تعالى بأعظم أسمائه جلّ وعز ويجعلها في مقدمة دعائه، وبعدها يسأل تعالى أن يصلي جلّ شأنه على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله كل هذا التوجه بالدعاء والتوسل بأحب خلق الله تعالى إليه يجعل المتلقي يتنبه إلى أهمية الأمر الذي سيأتي بعد هذه المقدمة، ولمن سيكون هذا الدعاء، ولماذا استعمل الإمام عليه السلام هذا الأسلوب في الكلام، أيّ لماذا يسأل الله تعالى بأعظم أسمائه وبأحبهم إلى قلبه قبل ذكر ما يدعو لأجله؟! كل هذا التنبيه لإبلاغ المتلقي بأهمية ما يدعو من أجله الإمام عليه السلام فهو عليه السلام لم يدع لنفسه ولا لأهل بيته في هذه الفقرة من الدعاء بل يدعو (لشيعته)، وهي قضية جداً مهمة إذ باستعمال لفظ (شيعتي) ونسبتهم إليه عليه السلام و (الشيعة) في اللغة الأتباع والأعوان والأنصار مأخوذ من الشياع، وهو الحطب الصغار التي تشتعل بالنار وتعين الحطب الكبار على إيقاد النار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، والجمع شيع مثل: سورة وسور... وأصل الشيعة الفرقة من الناس وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وغلب هذا الاسم على كل من يزعم أنه يوالي علياً وأهل بيته حتى صار لهم اسماً خاصاً(٣٩).

فعندما خصص الإمام (شيعتي) ونسبهم إليه أيّ قبلهم عليه السلام أنصاراً وأعواناً له سائرين على نهجه ونهج آبائه عليهم السلام، ولم يستعمل الإمام عليه السلام لفظاً آخر كـ(محبي) مثلاً أو (أنصاري) أو غيرهما بل خصص استعمال (شيعتي) بالذكر، إشارة منه عليه السلام، وإشعاراً منه عليه السلام بأهمية هذا اللفظ وإن لهؤلاء خصوصية ومرتبة عند الإمام عليه السلام لذلك توجه لله بهذا الأسلوب الدعائي ودعا لهم بأعظم أسماء الله تعالى وأحب خلقه إليه.

وصيغة الدعاء كانت (بأن المصدرية + الفعل المضارع (تجعل)) لما في معنى المصدر المؤول من دلالة على تأكيد لهذا الحدث أيّ (جعل شيعته) عليه السلام من (الذين حملوا فصدقوا) أيّ حملوا الأمانة الإلهية التي عبر عنها الله تعالى في محكم كتابه واصفاً حال اليهود الذين لم يحملوها وذلك في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[٤٠] وفي قوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ...﴾[٤١].

فهو عليه السلام يدعو الله أن يجعل شيعته من الصادقين في حمل الأمانة الإلهية وتأدية حقها، وأن يكونوا من الذين (استنطقوا فنطقوا) أيّ يتكلمون بالحق عندما يستنطقون أيّ يطلب منهم النطق والكلام ويكون نطقهم هذا في حال كونهم (آمنين مأمونين) وهنا تم استعمال صيغتي الفاعل (آمنين) واسم المفعول (مأمونين) أيّ دعا لهم بالأمن شاهد فمن داخلهم آمنين أيّ نفوسهم آمنة وكل ما يحيط بهم مأموناً.

ثم يسأل الإمام عليه السلام لهم مرة أخرى (اللهم إني اسألك لهم توفيق أهل الهدى...) أيّ يسأله تعالى أن يوفقهم ويسددهم توفيق وتسديد أهل الهدى، ولفظ (أهل) في اللغة يدل على الأصحاب أو الأقارب والعشيرة وأهل الدار: سكانها[٤٢]. ونلحظ هنا تكرار هذا اللفظ في أكثر من موضع وبحسب ما يسأله الإمام عليه السلام لشيعته، فيحدد بكلمة (أهل) ما يدعو به شيعته، ففي مسألة التوفيق نجده عليه السلام يسأل الله تعالى لهم توفيق أهل الهدى، ليكونوا دائماً على هدى بعيدين عن الضلالة، أما الأعمال فيسأل الله تعالى أن تكون أعمال شيعته أعمال أهل اليقين أيّ الذين وصلت مرتبتهم مرتبة الموقنين بالله تعالى حتى تكون أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى مسلمين له موقنين به عزّ وجل وبقضائه وقدره. ومن

ثم يسأل لهم (مناصحة أهل التوبة) والمناصحة هنا مصدر الفعل ناصح، وهو لفظ يدل على تشارك وتفاعل بين طرفين في النصيحة[٤٣]، أما من حيث المفهوم فهو مفهوم شرعي ينطلق من الثوابت الشرعية للدين الإسلامي، وهي ليست بدعاً من القول بل هي مفهوم يستند إلى توجيه رباني تدل عليه النصوص الشرعية والتوجيهات النبوية الفعلية والقولية. هي إرادة الخير للمنصوح له. وهنا يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى أن تكون هذه المشاركة بالمناصحة بين أفراد شيعته مناصحة أهل التوبة خصوصاً، لأن أهل التوبة يقصدون في مناصحتهم لبعضهم ترك السيئات والحث على الحسنات بما يرضي الله تعالى وبما يصلح شأنهم.

ومن ثم يسأل الإمام عليه السلام لشيعته عزم وإرادة أهل الصبر لما لهم من قوة تحمل وبعد أمل وحسن ظن بالله تعالى.

أما التقية فيطلب عليه السلام لشيعته تقية أهل الورع الذين يتورعون عن كل ما يغضب الله تعالى ويترفعون بأنفسهم عن كل ما لا يرضاه تعالى لعباده.

ومن جميع ما سبق نلحظ تكرار لفظ (أهل) مع اختلاف الصفة التي يسأل الإمام عليه السلام الله تعالى أن يجعلها في شيعته عليه السلام، إذ لكل من صفات (الهدى، واليقين، والتوبة، والصبر، والورع) أهل يعرفون بها ويكونون مصداقاً لهذه المفاهيم، فهو عليه السلام يسأل تعالى أن يكون شيعته عليه السلام مصداقاً لكل مفهوم من هذه المفاهيم بأن يجعلهم تعالى من أهل ذلك المفهوم حتى تكون هذه الصفات جزءاً لا يتجزأ منهم.

وعند إمعان النظر في قوله عليه السلام (وبكتمان الصديقين) نلحظ استعمال أسلوب مغاير لما سبق إذ لم يقل الإمام عليه السلام (كتمان أهل الصدق) وذلك لفرق في المعنى بين التعبيرين، إذ لما كان للكتمان خصوصية كبيرة وله أثر كبير في قضاء حوائج الفرد والجماعة على جميع الأصعدة نراه عليه السلام قد أضاف (كتمان) إلى (الصديقين) بصيغة اسم الفاعل أيّ من ثبتت فيهم هذه الصفة حتى يكاد يكون الصدق وهم واحد لا فرق بينهما في تُطابق تام بين المصداق والمفهوم هنا وهذا بخلاف ما سبق إذ أهل الشيء يحملون صفاته ويمثلونه لكن ليس لدرجة المطابقة التامة الحاصلة هنا وخصوصاً باختيار تعبير الإضافة إبلاغاً منه عليه السلام وتنبيهاً منه على خصوصية هذه الصفة وثبوتها في الصديقين أيّ من وصلوا إلى هذه المرتبة التي تقدم حتى من درجة النبوة كما ورد في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[٤٤].

كل هذه الصفات التي تقدم ذكرها وقد سألها عليه السلام لشيعته لكي تتحقق في نفوسهم قضية مهمة جداً وغاية طلب الإمام عليه السلام تحقيقها باستعمال لفظ (حتى) ويكرره أكثر من مرة ولأكثر من أمر وذلك في قوله (حتى يخافوك اللهم مخافة تحجزهم عن معاصيك) أيّ عندما يكونوا من أهل الهوى والصبر والصدق والورع ستتحقق فيهم مخافة الله تعالى بأن تكون جميع هذه الأمور السابقة حاجزات بينهم وبين ارتكاب المعاصي أيّ تكون هذه الأمور فاعلة فيهم نشطة في نفوسهم تحثهم على العمل الصالح وطلب رضاه تعالى وتجنبهم ارتكاب المعاصي فهي الحاجز بينهم وبين المعاصي، وهنا إشارة من الإمام عليه السلام للمتلقين بأن توفر هذه الصفات في العبد لا تكفي بل يجب أن تكون فاعلة فيه تعمل على تغييره نحو الخير وتجنبه الشرور والمهالك، فيتحقق حين ذاك العمل بهذه الصفات ثم يقول (وحتى يعملوا بطاعتك لينالوا كرامتك) فهنا شرط العمل بطاعة الله تعالى لتحقق نيل كرامته تعالى و (حتى يناصحوا لك وفيك خوفاً منك) و (حتى يخلصوا لك النصيحة في التوبة حباً لك فتوجب لهم محبتك التي أوجبتها للتوابين) و (حتى يتوكلوا عليك في أمورهم كلها حسن ظن بك) و (حتى يقوضوا إليك أمورهم ثقة بك).

وفي جميع هذه الجمل نجده عليه السلام قد عمد إلى استعمال (حتى) الناصبة والتي تفيد التعليل هنا إذ دخلت (حتى) على الفعل المضارع في جميع ما سبق ونصبته[٤٥].

((اللَّهُمَّ لَا تُنَالُ طَاعَتُكَ إِلا بِتَوْفِيقِكَ، وَلا تُنَالُ دَرَجَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الْخَيْرِ إِلَّا بِكَ، اللَّهُمَّ يَا مَالِكَ يَوْمِ الدِّينِ، الْعَالِمَ بِخَفَايَا صُدُورِ الْعَالَمِينَ، طَهِّرِ الْأَرْضَ مِنْ نَجَسِ هَلِ الشِّرْكِ، وَأَخْرِسِ الْخَرَّاصِينَ عَنْ تَقَوُّلِهِمْ عَلَى رَسُولِكَ الْإِفْكَ، اللَّهُمَّ اقْصِمِ الْجَبَّارِينَ، وَأَبِرِ الْمُفْتَرِينَ، وَأَبِدِ الْأَفَاكِينَ الَّذِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَأَنْجِزْ لِي وَعْدَكَ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، وَعَجِّلْ فَرَجَ كُلِّ طَالِبِ مُرْتَادٍ إِنَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ لِلْعِبَادِ))[٤٦].

نلحظ هنا استعمال أسلوب الحصر والقصر بطريقة (أداة النفي) + أداة الاستثناء (إلاّ) فهو عليه السلام يلخص جميع ما ذكره وما طلبه لشيعته بأنه تحقق نيل طاعة العبد يكون محصوراً بتوفيق الله تعالى له، وكذلك لا ينال العبد أيّ مرتبة أو درجة من درجات الخير والعمل الصالح إلاّ بوساطته تعالى شأنه.

وبعد أن انتهى عليه السلام من الدعاء لشيعته توجه بالدعاء على المشركين والخراصين والأفاكين من أهل الشرور والفساد في الأرض، وهنا نلحظ استعمال صفات إلهية تناسب الدعاء على هؤلاء لا الدعاء لهم، إذ استعمل الإمام عليه السلام صفة (مالك يوم الدين) وهي صفة تبلغ المتلقي بعظمته تعالى وقدرته إذ له وحده يحشر الناس وتتم محاسبته على أعمالهم في هذا اليوم الذي حدده تعالى لهم وهو اليوم الآخر، إذ لم يكن الموضع هنا موضع رحمة ولطف وعناية بل الموضع هنا موضع إبلاغ بعذاب وعقاب من سيأتي ذكرهم والدعاء عليهم وطلب نزول العذاب بهم. ومن ثم يقول عليه السلام (العالم بخفايا صدور العالمين) وهذه إشارة منه عليه السلام لمن يظهر خلاف ما يبطن فإن غفل الناس عن ذلك وقوعهم بذلك فإن الله سبحانه وتعالى عالم بخفايا صدور العالمين جميعاً ويعلم نياتهم وحقيقة ما يظهرون ويبطنون.

ثم يشرع عليه السلام بالدعاء عليهم (طهر الأرض من نجس أهل الشرك، واخرس الخراصين عن تقولهم على رسولك الأفك) وفي هذا تضمين لما ورد في القرآن الكريم ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾[٤٧]، فأصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم، ولكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خرّاصاً، والأشبه أن يكون المراد بالخراصين في الآية القوالين من غير علم ودليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم))[٤٨].

(اللهم اقصم الجبارين، وابر المفترين، وأبد الأفاكين الذين إذا تتلى عليهم آيات الرحمن قالوا أساطير الأولين).

يكمل الإمام عليه السلام الدعاء عليهم وبحسب فئاتهم وما عرفوا فيه من الصفات السيئة بقوله (اقصم الجبارين)، فالقصم في اللغة يعني الإهلاك والتدمير، ويقال (قصم الله ظهر فلان) وهو تعبير مجازي يراد به الدعاء على هذا الشخص لإنزال البلية به[٤٩] ومن ثم ضمن الإمام عليه السلام قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٥٠].

ثم يشرع الإمام في الفقرة الأخيرة من دعائه عند القنوت بالتوجه إلى الله تعالى في إنجاز وعده لعبده إذ يقول تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٥١] فيقول عليه السلام: (وانجز لي وعدك إنك لا تخلف الميعاد وعجّل فرج كل طالب مرتاد، إنك لبالمرصاد للعباد).

وهنا نلحظ استعمال الإمام ضمير المتكلم (انجز لي) إذ لم يقل عليه السلام (لنا) وهنا إبلاغ منه عليه السلام لإشعار المتلقي بقرب المسافة بين العبد وربه وخصوصاً في حال القنوت ومن ثم يؤكد الإمام عليه السلام وباقتباسه من القرآن الكريم كذلك ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٥٢] وبأسلوب الخبر المؤكد (إنك) لا تخلف وعدك لعبادك.

ثم قال عليه السلام (وعجل فرج كل طالب مرتاد) لم يقل عليه السلام (وفرّج) مباشرة بل استعمل الفعل (عجّل) وذلك لبيان شدة التأكيد هنا على طلب الفرج والإسراع في اتمامه فهو عليه السلام يطلب من الله تعالى تعجيل الفرج بشكل عام وشامل.

لكل (طالب مرتاد) والمرتاد كثير التردد والاختلاف إلى مكان معين[٥٣] و (الطالب المرتاد) هنا هو من كثر تردده والحاحه على الله تعالى في قضاء حوائجه، ومن ثم يختم الإمام عليه السلام هذه الفقرة بقوله (إنك لبالمرصاد للعباد) أيّ أنت يا ربي ويا إلهي ترصد عبادك وتقضي حوائجهم بسرعة فائقة فأنت رقيب عليهم ترصد جميع حركاتهم وسكناتهم وتعلم ما ينفعهم وما يضرهم، وهنا أيضاً استعمل الإمام أسلوب الخبر المؤكد (إنك) (واللام) واستعمل أكثر من مؤكد هنا تنبيهاً منه عليه السلام على هذا الأمر وبأن الله تعالى بالمرصاد للعباد وهو سريع الإجابة بما ينفع الناس.

ثم يختم الإمام عليه السلام دعاءه بالتعوذ من جملة أمور هي ((**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ لَبْسٍ مَلْبُوسٍ، وَمِنْ كُلِّ قَلْبٍ عَنْ مَعْرِفَتِكَ مَحْبُوسٍ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسٍ تَكْفُرُ إِذَا أَصَابَهَا بُؤْسٌ، وَمِنْ وَاصِفٍ عَدْلٍ عَمَلُهُ عَنِ الْعَدْلِ مَعْكُوسٌ، وَمِنْ طَالِبٍ لِلْحَقِّ وَهُوَ عَنْ صِفَاتِ الْحَقِّ مَنْكُوسٌ، وَمِنْ مُكْتَسِبِ إِثْمٍ بِإِثْمِهِ مَرْكُوسٌ " وَمِنْ وَجْهٍ عِنْدَ تَتَابُعِ النِّعَمِ عَلَيْهِ عَبُوسٌ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمِنْ نَظِيرِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَشْبَاهِهِ وَأَمْثَالِهِ، إِنَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**))[٥٤].

نلحظ هنا بأن الإمام عليه السلام يتعوذ من جهة أمور ابتدأ بأولها وأهمها وهو قوله عليه السلام (من كل لبسٍ ملبوس) و (لَبْس) هنا مصدر الفعل (لَبسَ) والمفعول منه (ملبوس) ويراد به في اللغة: الشك والشبهة والحيرة وعدم الوضوح، ولبس عليه الأمر: أيّ اختلط واشتبه بغيره وعمّاه حتى لا يعرف حقيقته[٥٥].

وعندما تعوذ الإمام عليه السلام من هذا الأمر ابتداء وقدمه على غيره فهو إبلاغ منه عليه السلام

للتنبيه على أهمية هذا الأمر وعظمته، وبأثره على جملة من الأمور منها ما سيذكرها بعده، إذ قد يكون حصوله حصول هذه الأمور التي سيأتي ذكرها، وبانتفائه ينتفي حصولها، فهو تعوذ عام شامل من كل لبس وشبهة وحيرة سواء في العقيدة أو الفكر أو العمل أو جميع مناحي الحياة، إذ كثير من العباد تلبس عليه بعض الأمور فيسبب ذلك له الابتعاد عن طريق الله تعالى وسلوك طرق الشيطان والعياذ بالله من ذلك، ومن هذا الطريق يدخل الشيطان لفكر العبد، ويدخل المنافق، والكافر، وسيء الخلق وغيرهم ممن سولت لهم أنفسهم اقتراف الذنوب والرذائل، وعندما ذكر الإمام صيغة المفعول هنا فضلاً عن المصدر (لبس ملبوس) أيّ وقع عليه الإلتباس فصار شديد اللبس، فهو تحذير منه عليه السلام للعباد للانتباه لكل أمر مشابه لهذا أو مماثل له، إذ من يسيطر عليه هذا اللبس قد يؤدي به إلى خسران الدنيا والآخرة لذلك يعلمنا عليه السلام استمرارية الدعاء لله تعالى لتخليصنا من الوقوع في مثل ذلك.

ومن ثم يتعوذ كذلك (من كل قلب عن معرفتك محبوس) وهنا تعبير مجازي نوعه استعارة إذ استعار (الحبس) هنا وأضافه للقلب والقلب في الواقع لا يحبس وإنما يصور لنا الإمام عليه السلام هنا حالة قلب الإنسان البعيد عن الله سبحانه وتعالى، وكأنما هذا الإنسان الذي ابتعد عن الله تعالى حبس قلبه عن معرفة الله تعالى فبعد أن ابتدأ الإمام بالتعوذ من اللبس وهو عادة ما يكون في الفكر انتقل إلى رديف العقل وهو القلب وهي الثنائية التي ترافق العبد دوماً، فهما يشتركان معاً بنجاة العبد وقربه من الله تعالى من جهة خسرانه وابتعاده عن الله تعالى من جهة أخرى.

وبالتالي فالإمام عليه السلام يتعوذ من القلب المحبوس عن معرفة الله تعالى بعد أن تعوذ من اللبس الملبوس، إذ هذا مرتبط بهذا، ذلك بأن تحقق اللبس الملبوس في فكر العبد يؤدي إلى حبس قلبه عن معرفة الله تعالى.

ومن ثم يتعوذ عليه السلام من (كل نفس تكفر إذا أصابها بؤس وفاقة ونقص في النعم وابتلاءات في الدنيا)، فنلحظ التدرج هنا إذ ابتدأ بالتعوذ من القضايا الفكرية ومن ثم القلبية ومن ثم النفسية وبعدها يقول عليه السلام متعوذاً (ومن واصف عدل عمله عن العدل معكوس) وهنا يتعوذ عليه السلام من الإنسان الذي يتكلم ويتحدث بالعدل وذلك باستعماله عليه السلام لفظ (واصف) بصيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبوت هذه الصفة فيه، فكثير من الناس نراهم

هكذا عندما يتحدث عن العدالة فهو واصف ممتاز لها بكلامه وهذه الصفة ثابتة فيه غير منفكة عنه من حيث الكلام والحديث لكن عندما نأتي إلى التطبيق والجانب العملي والفعلي لكلامه الرائع عن العدل نراه كما قال الإمام عليه السلام (عمله عن العدل معكوس) أيّ غير عادل بعيد كل البعد عند العدل، ويمكن أن يكون هذا التعبير تعبير كنائي عن الإنسان المنافق إذ التكلم بشيء والعمل بعكسه جزء من النفاق أو فيه كناية لأشخاص يقصدهم الإمام بعينهم في زمنه.

وكذلك يتعوذ الإمام وبالأسلوب ذاته من (طالب الحق وهو عن صفات الحق منكوس) والمنكوس (اسم مفعول من نَكَسَ، وهو المقلوب)[٥٦] فهو أيضاً يطلب الحق بلسانه وهو بعيد كل البعد عن التخلق بأخلاق أهل الحق على مستوى القول والفعل.

ومن ثم يتعوذ عليه السلام من (مكتسب إثم بإثمه مركوس) والمركوس اسم مفعول من الفعل (ركس) أيّ ردَّ الشيء وقلبه، فهو المردود المدبر عن حاله[٥٧].

ومن ثم يتعوذ من (وجه عند تتابع النعم عليه عبوس) وهي حالة يستهجنها الإمام عليه السلام، ويتعوذ منها إذ هناك بعض العباد نراه لا يستبشر ولا يفرح ولا يشكر نعمه تعالى بل يبقى مقطباً عبوساً مع ترادف نعم الله تعالى عليه وهو أمر منبوذ عن أهل البيت عليهم السلام.

وفي جميع هذه الفقرات نلحظ اعتماد الإمام عليه السلام احدى المحسنات اللفظية البديعية هنا، ألا وهي خاصية السجع فجميع العبارات خواتيمها مسجوعة بلفظ اسم المفعول، وفي ذلك إبلاغ منه عليه السلام على شدة تعوذه من جميع هذه الأمور المذكورة والتي يقع عليها أحد هذه الأحداث ويكون ثابتاً فيها، أيّ هي لا تصدر من العبد ذاته بل يكتسبها من محيطه وتقع عليه فإن تمكنت منه كانت جزءاً لا يتجزأ منه وأثرت عليه وأبعدته عن طريق الله تعالى، ففي اختيار هذه الصيغة تنبيه منه عليه السلام للمتلقين بأن يتعوذوا أيضاً من جميع ذلك وأن لا تصل بهم الأمور إلى أن تتمكن منهم الرذائل والمساوئ فتصبح جزءاً لا يتجزأ منهم كما ذكر وكما عبرت عنه هذه الصيغة.

ثم يختم الإمام قنوته عليه السلام بهذه الكلمات (أعوذ بك من ذلك كله، ومن نظيره وأشكاله وأشباهه وأمثاله إنك عليم حكيم) وهو تعوذ عام شامل لكل ما ذكره وما يماثله أو يقاربه أو يشاكله فهو تعالى عالم بعباده حكيم في معاملته لهم.

دعاؤه عليه السلام في الصباح:

((يَا كَبِيرَ كُلِّ كَبِيرٍ، يَا مَنْ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ، يَا خَالِقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْمُنِيرِ، يا عِصْمَةَ الْخَائِفِ الْمُسْتَجِيرِ، يَا مُطْلِقَ الْمُكَبَّلِ الْأَسِيرِ، يَا رَازِقَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ، يَا جَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ، يَا رَاحِمَ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ، يَا نُورَ النُّورِ، يَا مُدَبِّرَ الْأُمُورِ، يَا بَاعِثَ مَنْ فِي الْقُبُورِ، يَا شَافِيَ الصُّدُورِ، يَا جَاعِلَ الظِّلِّ وَ الْحَرُورِ، يَا عَالِماً بِذَاتِ الصُّدُورِ، يَا مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَالنُّورِ وَالْفُرْقَانِ وَالزَّبُورِ))[٥٨].

يبدأ الدعاء بقوله عليه السلام: (يا كبير كُلِّ كبير) ومن الملاحظ على هذا النص الإمامي بأن أسلوب النداء بـ (يا) هو الطاغي عليه الأكثر استعمالاً من الأساليب اللغوية الأخرى ونلحظ على هذه العبارة دقة الاختيار في التعبير عن عظمة الله تعالى إذ يقول عليه السلام (يا كبير كل كبير) إذ لم يقل (يا أكبر من كل كبير) بصيغة التفضيل ذلك بأن التفضيل يقتضي المفاضلة بين أمرين بينهما نقاط مشتركة وبما أن الخطاب هنا موجه إلى الله تعالى الذي ليس كمثله شيء جاء التعبير هنا بصيغة (فعيل) (كبير) للإبلاغ عن كون هذه الصفة استثنائية في ذات الله تعالى وكل ما سواه فهو صغير متناه. وكذلك فيها دلالة على أن كل كبير من المخلوقات بخلقه وخلقه فإن كبيره وخالقه ومنشئه ومشرعه الله سبحانه وتعالى وحده عزّ شأنه، فكان كبير هذا المخلوق بنعمة الله وفضله ولطفه.

ثم تأتي العبارة الثانية في الدعاء معززة لتفرد الله تعالى وعظمته (يا من لا شريك له ولا وزير)، باستعمال (لا) النافية لجنس الشرك والوزارة فالله سبحانه وتعالى فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ثم يعدد عليه السلام جملة من الصفات الإلهية مستعملاً صيغة اسم الفاعل (في الغالب) فيقول: (يا خالق الشمس والقمر المنير، يا عِصمة الخائف المستجير، يا مطلق المكبّل الأسير، يا رازق الطفل الصغير، يا جابر العظم الكسير، يا راحم الشيخ الكبير، يا نور النور، يا مدبّر الأمور، يا باعث من في القبور يا شافي الصدور، يا جاعل الظل والحرور، يا عالماً بذات الصدور، يا منزل الكتاب والنور والفرقان والزبور).

وفي هذه الفقرة يتكرر (أسلوب النداء (يا) + صيغة اسم الفاعل) القياسية وغير القياسية.

(فالق، مطلق، رازق، جابر، رام...) وذلك لما تعمله هذه الصيغة اللغوية من دلالة على ثبات الصفة في الموصوف واستمراريتها.

ولكن مما يلحظ على هذه الفقرة بأن الإمام عليه السلام قد استغنى عن استعمال صيغة (اسم الفاعل) في موضعين فقط وعدل منها إلى استعمال صيغة المصدر وذلك في قوله عليه السلام (يا عصمة الخائف المستجير) إذ لم يقل (يا عاصم) ذلك بأن التعبير بعصمة فيه استغراق في ثبات هذه الصفة فهي تعمل دلالة أعمق من وعاصم فمثلاً جاء في القرآن الكريم ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[٥٩]، فغير الله تعالى ممكن أن يكون عاصماً أما الله سبحانه وتعالى جلّ شأنه وتقدست اسماؤه عصمة لكل خائف مستجير به.

وكذلك قال عليه السلام (يا نور النور) فهو تعالى نور وليس كمثل نوره شيء.

ثم يقول عليه السلام (يا من تسبح له الملائكة بالأبكار والظهور) وهنا استعمل صيغة فعل المضارع (تسبح) لما يحمله من دلالة على استمرارية الحدث (التسبيح) وتجدده ومن ثم يعدد بعدها إلى استعمال صيغة اسم الفاعل ((**يَا دَائِمَ النَّبَاتِ، يَا مُخْرِجَ النَّبَاتِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، يَا مُحْيِيَ الْأَمْوَاتِ، يَا مُنْشِيءَ الْعِظَامِ الدَّارِسَاتِ، يَا سَامِعَ الصَّوْتِ، يَا سَابِقَ الْفَوْتِ، يَا كَاسِيَ الْعِظَامِ الْبَالِيَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ**))[٦٠].

ثم تبدأ فقرة جديدة في هذا الدعاء أيضاً بأسلوب النداء لكن مع صيغة الفعل المضارع فيقول عليه السلام: ((**يَا مَنْ لَا يَشْغَلُهُ شُغْلٌ عَنْ شُغْلٍ، يَا مَنْ لا يَتَغَيَّرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، يَا مَنْ لا يَحْتَاجُ إِلَى تَجَشُّمِ حَرَكَةٍ وَلَا انْتِقَالٍ، يَا مَنْ لا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، يَا مَنْ يَرُدُّ بِاللُّطْفِ الصَّدَقَةَ وَالدُّعَاءَ عَنْ أَعْنَانِ السَّمَاءِ مَا حَتَمَ وَأَبْرَمَ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ، يَا مَنْ لا يُحِيطُ بِهِ مَوْضِعٌ وَمَكَانٌ، يَا مَنْ يَجْعَلُ الشِّفَاءَ فِيمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَشْيَاءِ**))[٦١].

وهنا صفات فعلية ناسب اختيار صيغة الفعل المضارع فيها بينما السابقة صفات ذاتية.

ثم يشرع عليه السلام بتعداد الصفات الذاتية والفعلية لله تعالى بالأسلوب ذاته (يا + من + فعل) أو (يا + اسم فاعل) إلى أن يأتي إلى فقرة الشهادة فهو يشهد على نفسه أمام الله تعالى وهذه الفقرة – فقرة الشهادة – كثيراً ما نراها تتكرر في أدعية الصباح للأئمة عليهم السلام[٦٢] إذ بعد فقرة الحمد والثناء لله تعالى وذكر صفاته تذكر فقرة الشهادة.

((أَشْهَدُ وَالشَّهَادَةُ لِي رِفْعَةٌ وَعُدَّةٌ، وَهِيَ مِنِّي سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، وَسَمْعٌ وَطَاعَةٌ، وَبِهَا أَرْجُو الْمَفَازَةَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ، أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ...))[٦٣].

وتبدأ الفقرة بقوله عليه السلام: ((فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاهْدِنِي مِنْ عِنْدِكَ)) وهنا نلحظ استعمال (الفاء) للدلالة على العطف بالترتيب والتعقيب لما ذكر قبلها فهو عليه السلام شهد لله تعالى بأنه لا إله إلاّ هو وشهد أن محمداً عبده ورسوله وأنه صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ رسالته فهنا يلتمس سرعة استجابة الدعاء من الله سبحانه وتعالى فعمد إلى استعمال حرف (الفاء) هنا، إذ قدم الصلاة على محمد وآل محمد وبفضل محمد وآل محمد ومكانتهم عند الله تعالى يطلب من الله تعالى هدايته فيقول (واهدني من عندك) باستعمال حرف العطف (الواو) التي تدل على العطف والجمع بين أمرين مع تقديم وتفصيل الأول.

وهنا نلحظ قضية مهمة جداً ففي أغلب أدعية أهل البيت عليهم السلام نجدهم يقدمون الصلاة على محمد وآل محمد قبل طلب الحوائج المهمة أو التي يرغب العبد بسرعة تحققها وقضائها، وذلك لما في الصلاة على محمد وآل محمد من أثر كبير في دعاء العبد وتوجهه إلى الله تعالى وسرعة استجابة دعاؤه.

ومما يلحظ على التركيب اللغوي الذي استعمله الإمام عليه السلام هنا (واهدني من عندك) بأنه عليه السلام استعمل هنا (من عندك) للإبلاغ عن حصر الهداية واختصاصها بالله تعالى، وإذ هناك فرق لو كان التعبير (اهدني إليك) إذ يكون المعنى هنا بأن العبد يطلب من الله تعالى هدايته للوصول إليه بشكل عام من دون تخصيص بسبيل الهداية إليه تعالى أما عندما يقول عليه السلام (من عندك) فالمعنى يكون أكثر عمقاً ودلالة فهو مباشرة يطلب من الله تعالى اختصاص موضوع الهداية من عنده فقط دون غيره من الوسائل الأخرى فكأنما المعنى المقصود تكون الهداية من أعلى إلى أدنى بينما بالتعبير الثاني من الأدنى إلى الأعلى.

ثم يقول باستعمال التركيب اللغوي ذاته ((وَأَفِضْ عَلَيَّ مِنْ فَضْلِكَ، وَانْشُرْ عَلَيَّ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيَّ مِنْ بَرَكَاتِكَ)).

باستعمال (فعل الأمر + من (التبعيضية) + الأمر المقصود + (ك) إذ يكون الطلب محصوراً بغير الكاف العائد على الله سبحانه وتعالى فهو يطلب منه تعالى حصراً بأن يفيض

عليه من فضله ورحمته وبركاته.

مع استعمال الرابط (عليّ) في جميعها المكون من (حرف الجر على + ياء المتكلم الضمير) للتأييد على اختصاص الطلب بالمتلقي (الرأي).

ثم يقول عليه السلام: ((**فَطَالَ مَا عَوَّدْتَنِي الْحَسَنَ الْجَمِيلَ، وَأَعْطَيْتَنِي الْكَثِيرَ الْجَزِيلَ، وَسَتَرْتَ عَلَيَّ الْقَبِيحَ**)) ومن جمالية الإبلاغ عن اللطف والرحمة الإلهية هنا عبّر الإمام عليه السلام عن ذلك باستعمال صيغة (الفعل الماضي) (عودتني - أعطيتني - سترت) للدلالة على ثبات هذا الحدث واستمراره.

فهو عليه السلام يبلغ المتلقي بأنه عندما يطلب من الله تعالى أموراً يرغب بسرعة استجابتها وتحقيقها من الله سبحانه وتعالى فإنه يستعمل صيغة الأمر (الخارجة إلى غرض الدعاء لأنه من الأدنى إلى الأعلى، مع الحرص على استعمال الروابط المناسبة في التركيب اللغوي للدلالة على اختصاص الدعاء بالله تعالى وطلب سرعة الاستجابة.

بينما عندما يعبّر عليه السلام عن النعم والألطاف الإلهية التي منحها الله سبحانه وتعالى لعبده وما زالت مستمرة فإنه اختار التعبير بالفعل الماضي لبيان دوام العطاء الإلهي وثباته وأيضاً ربط جميع ذلك للربط بـ (عليّ).

ثم يكرر عليه السلام ذكر الصلاة على محمد وآل محمد فيقول: (اللهم فصلِّ....) للتأكيد على الأمور التي دعا لله تعالى في قضائها، ومن ثم يختم عليه السلام هذا الدعاء بالصلاة على محمد وآل محمد فيقول: ((وصلِّ على من به فهّمتنا وهو أقرب وسائلنا إليك ربنا محمد وآله وعترته الطاهرين))[٦٤].

فهو عليه السلام يبلغ هنا عن حقيقة مهمة وحساسية في الدين والتسليم لله تعالى ألا وهي كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام هو الوسيلة إلى الله تعالى وبحبهم وبقربهم وبالتوجه بهم والتمسك به النجاة من براثن الشيطان والظفر برضا الله تعالى وحسن العاقبة.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة تم التوصل إلى أن أدعية الإمام الهادي عليه السلام المجموعة في (الصحيفة النقوية) التي أعدها السيد جواد القيومي الأصفهاني ضمن موسوعته للأدعية

تحتوي على تراكيب لغوية مقصورة بحد ذاتها ثم التوقف عندها ودراستها وبيان مدى أهميتها وسبب اختيارها دون غيرها وأثر هذا الاختيار المقصود في عملية الإبلاغ وبيان مدى تأثير ذلك في المتلقي (القارئ أو السامع للنص)، إذ كانت بعض هذه التراكيب بمثابة منار تنبيه غايتها تنبيه المتلقين على قضايا مهمة بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى، بينما سعت بعض هذه التراكيب للكشف عن أهمية أشخاص معينين كما في فقرة الصلاة على محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي بعض الفقرات كانت هناك تراكيب لغوية قصد استعمالها لطلب الحفظ من مزالق الدنيا ومن هوى النفس ومن براثن الشيطان وكل ما قد يتعرض له القارئ لهذه الأدعية...

هوامش البحث

(١) ينظر: موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٥/٥ - ٢٦٨، والتقنيات البلاغية في أدعية الإمام الهادي عليه السلام، د. حسين لفته حافظ، مجلة مركز دراسات الكوفة، والسمات الدلالية في أدعية الامامين العسكريين عليهما السلام، د. خليل فلك بشير، مقال منشور في ينابيع، أغسطس ٢٠١٨/١٣، وأدب الدعاء عند الإمام الهادي عليه السلام دراسة في لغته وبلاغته، زينة كاظم محسن.

(٢) المنهج التحليلي، د. يحيى سعد، موقع دراسة للاستشارات والدراسات والترجمة.

(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (حلل): ٢٠٦/٤، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (حلل): ٩٠٨.

(٤) المنهج التحليلي، د. يحيى سعد، موقع دراسة للاستشارات والدراسات والترجمة.

(٥) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، د. محمود عكاشة: ١٢.

(٦) المرجع نفسه: ١٣.

(٧) ينظر: أسس علم اللغة، ماريوباي: ٤٣.

(٨) ديوان دعبل الخزاعي، دعبل الخزاعي: ٦١.

(٩) سورة يوسف، الآية ٢٩.

(١٠) ينظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي: ٩.

(١١) موسوعة الأدعية (الصحيفة النقوية)، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٥/٥.

(١٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (تيه): ٢٥٢/٢.

(١٣) ينظر: المصدر نفسه، مادة (وهم): ٢٩٢/١٥.

(١٤) سورة ص، الآية ٥٢.

(١٥) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٥٠/٢٧.
(١٦) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ابن عاشور: ٢٥٠/٢٧.
(١٧) سورة إبراهيم الآية ٤٣.
(١٨) سورة الحاقة، الآية ٤٤.
(١٩) ينظر: دلالة اسم الفاعل في معاني الأبنية في العربية، د. فاضل السامرائي: ٤١.
(٢٠) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٨/٥.
(٢١) الموافقات، الشاطبي: ٢٠٢/٤.
(٢٢) ينظر: معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي: ١٢٥/٢.
(٢٣) ينظر: المعجم الوسيط، مادة (وحد): ٦١٨/٢.
(٢٤) ينظر: خلاصة علم الكلام، د. عبد الهادي الفضلي: ٧٨ - ٩٢.
(٢٥) ينظر: المعجم الوسيط، مادة (حندس): ١٨٧/١.
(٢٦) سورة النور، الآية ٣٥.
(٢٧) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (هطل): ٩٨٩.
(٢٨) ينظر: معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي: ٩ وما بعدها.
(٢٩) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٣٠) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (نفث): ٣١٢/١٤.
(٣١) سورة الفلق، الآية ٤.
(٣٢) سورة المؤمنون، الآية ٩٧.
(٣٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (رصد): ١٦٠/٦.
(٣٤) سورة الصف، الآية ٨.
(٣٥) سورة التوبة، الآية ١٦.
(٣٦) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٩/٥.
(٣٧) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٩/٥.
(٣٨) المرجع نفسه: ٢٣٩/٥.
(٣٩) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (شيع): ١٧٦/٨ وما بعدها.
(٤٠) سورة الجمعة، الآية ٥.
(٤١) سورة الأحزاب، الآية ٧٢.
(٤٢) ينظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة (أهل): ٨٨٧.
(٤٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (نصح): ٢٦٨/١٤.
(٤٤) سورة مريم، الآية ٤١.

(٤٥) ينظر: مغني اللبيب.
(٤٦) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٣٩/٥ - ٢٤٠.
(٤٧) سورة الذاريات، الآية ١٠ - ١٢.
(٤٨) الميزان في تفسير القرآن: ٣١٧/١٨ - ٣١٨.
(٤٩) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (قصم): ٢٠١٣/٥.
(٥٠) سورة القلم، الآية ١٥.
(٥١) سورة غافر، الآية ٦٠.
(٥٢) سورة آل عمران، الآية ١٩٤.
(٥٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (رود): ٢٥٩/٦ وما بعدها.
(٥٤) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٤٠/٥.
(٥٥) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (لبس): ٥٩٩/٢.
(٥٦) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، مادة (نكس): ٦٠٧/٢.
(٥٧) ينظر: المصدر نفسه، مادة (ركس): ٥٧٧/٢.
(٥٨) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٤٠/٥.
(٥٩) سورة هود، الآية ٤٣.
(٦٠) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٤١/٥.
(٦١) المرجع نفسه: ٢٤١/٥.
(٦٢) ينظر: مصباح المتهجد، الطوسي: ١٦٦ - ١٧١، والبلد الأمين، الكفعمي: ٩١ - ٩٧.
(٦٣) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٤١/٥ - ٢٤٢.
(٦٤) موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني: ٢٤٢/٥.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١. التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دراسة في الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.
٢. د. محمود عكاشة، ط١، دار النشر للجامعات، مصر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٣. مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، صححه وأشرف على طبعته فضيلة الشيخ الأعلمي، ط١، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٨م.

٤. ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٥. ديوان دعبل الخزاعي، دعبل الخزاعي، شرحه وضبطه وقدّم له: ضياء حسين الأعلمي، منشورات: مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٦. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧. البلد الأمين، الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد بن مناع العاملي الكفعمي (ت٩٠٠هـ)، بيروت – لبنان، مؤسسة النعمة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٨. لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت – لبنان، ط٦.

٩. موسوعة الأدعية، جواد القيومي الأصفهاني، ط٣، ١٤٣٤هـ/، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد – إيران.

١٠. تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت – لبنان، ط١.

١١. معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، دار إعمار، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٢. معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار السلاطين، الأردن – عمان، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

١٣. خلاصة علم الكلام، د. عبد الهادي الفضلي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ٢٠٠٧م.

١٤. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

١٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

١٦. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.